المدرسة المصرية في الفن والحياة

الفنون الإسلامية

أصالتها وأهميتها

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصري ـ
رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk. Com.

حَامدْ سَعيْد

المدرسَة المصرّية فى الفنّ والحيَاة

الفُنُون الإسْلاميّة

أصَالتها وأهمّيتها

دار الشروق

* مازالت اهتمامات البشرية بتراثها التشكيلى اهتمامات رائدها الذهن، ومحتواها الشكل والرمز.
* ومازالت محتويات الشكل والرمز تدرك معزولة عن جذورها الأساسية.
* ومازالت الجذور الأساسية للفنون العظيمة تحفز على الإدراك الذهنى للفن.
* ولكن الحقيقة الأساسية للفنون الكبيرة حقا هى الصور الوجدانية لحقيقة الحقائق.

هذه الفنون هى ثمرة فنون العالم القديم حيث ظهرت أقدم الحضارات، واكتشفت ومورست الفنون الأساسية المختلفة، والتى بدأت كلها من بدايات صغيرة لمجتمعات صغيرة متناثرة متنابذة، لديها النزوع إلى التغلب على هذا التناثر والتنابذ، لتكوين وحدات أكبر، يعود إليها التناثر والتنابذ مرة أخرى ولكنها تنزع ـ فيما بعد فى عصور الصحة والعنفوان ـ إلى التوحد والتكامل والسلام.

هذه الفنون ذات العراقة الفريدة، وجدت وحدتها وتآزرها وسموها فى العصور الوسيطة، متحققة فى فنون الإسلام.

والفنون الإسلامية العربية، وليدة رؤية إلى الكون والحقيقة والحياة تتمتع بخصوصية وامتياز، ولكنها جزء من الرؤية الإسلامية الأشمل، التى هى بدورها مظهر خاص متميز من حالة أعم، هى الرؤية الدينية التى ينأى عنها العالم المتقدم اليوم، ويقيم بينه وبينها الحواجز والسدود، وإن كانت بوادر العودة إليها تومض هنا، وتبرق هناك.

والرؤية الدينية هى رؤية الإنسان الكل ـ بكل مواهبه ـ للكل، كل الوجود، وِسع التفتح له، ينبثق منها وعى بالقدسية والمعنى، قدر رتبة ذلك الوعى.

والرؤية الدينية الإسلامية ترى الله ـ حقيقة الحقائق ـ هو الحق. وترى الحياة الحقة فى إسلام الوجه لله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء.

ومن خصوصياتها:

(أ) التنزيه: بالعزوف عن الوقوف عند المحدود ودون الغاية المثلى.

(ب) العالمية : فهى للناس كافة ، وأبعد ما تكون عن الإقليمية والقبلية والعنصرية .

(جـ) الشمولية : فهى للحياة من المهد إلى اللحد ، إلى الجنة والنار والوصول إلى الله .

(د) الرؤية الحسابية الهندسية للكون : الذى قدر فيه كل شىء وأتقنه من وراء الخيال . . ميزان وحساب ، وتقابل بين ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وملائكة وشياطين وسائر الخلق . . وكل شىء عنده بمقدار .

(هـ) التعلق بالسماء : مع عشق الحياة على الأرض دون تعلق بها .

(و) النظر إلى الطبيعة صنع الله : ﴿الذى أتقن كل شىء﴾﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾ .

ومما يحجب رؤية أصالة الفنون الإسلامية بعامة :

(أ) ضحالة إدراك معنى الفن ، الأمر الذى يرتبط به حتما تقديرنا لأى فن من الفنون : فإذا كنا ننظر إلى الفن فى ضوء الفن الأوروبى الأكاديمى الراكد المعاصر . . أو فى ضوء الفن المسمى بالحديث والذى يشمل هو الآخر جانبا أكاديميا راكدا . . إذا كنا نعتبر الفن محصورا فى هذا الأفق فحسب ، فقد سجنا أنفسنا فى حيز ضيق ، وأفق محدود ، بينما عالم الفن عالم واسع بغير حدود .

(ب) ودرجات الوعى بالحقيقة من وراء كل مشهود ، هى الآخرى قد تكون من الحجب التى تسجن القلب فى نطاق محدود من المعنى . . وعالم المعنى فى مجال الحقيقة واسع مطلق بغير حدود . فإذا كانت نظرتنا مقيدة بمعنى الفن الذى نقنع به ، أو بمعنى الحقيقة الذى نقف عنده ونتقيد به ، وكنا قد اتخذنا من ذلك منطلقا ننظر منه إلى واحد من الفنون الكبرى ، فإننا بذلك نكون قد ظلمنا هذه الفنون وظلمنا أنفسنا على حد سواء .

(جـ) وإذا كنا قد هبطنا إلى ما هو أدنى من ذلك ، وكانت السطحية هى دليلنا ، فمن الواضح أن قدرتنا على التقدير والحكم تفقد مسوغاتها . ومما يقف حائلا دون رؤية أصالة تلك الفنون ، الفكرة الغائمة عن معنى الأصالة ، والتى تفرض أن الأصيل فى الفن هو الذى يتولد ذاتيا . . ذلك

المفهوم الذى انتهى عهده فى علوم الحياة، ومازال متبقيا منه أثر فى دائرة الفنون.

لا ينشأ كائن حى نشأة ذاتية، إنما يتولد من أصول، ولايمنع هذا أن الذى يتولد يكون كيانا جديدا وأصيلا.

كذلك لا يتولد الفن ذاتيا، إنما يتولد من أصول، ولايمنع هذا أن يتولد الكيان الجديد الأصيل.

(د) ومما يقف حائلا دون تفهم كنه ومضمون هذه الفنون الإسلامية النظر إليها من مفاهيم فنون أخرى، كما هى الحال التى مازالت شائعة لدى الكثيرين من تفسير الفنون الإسلامية على أساس الإباحة والتحريم، وهو تفسير ينشأ من الاستكانة إلى النظرة على الوضع الشائع فى الفنون على أنها فنون جميلة وفنون تطبيقية، وأن الفنون الجميلة قوامها فنا التصوير والتجسيم، ثم النظر إلى ما ليس نحتا أو تصويرا على أنه زخرفة. وتعتبر الفنون الإسلامية وكأنها كلها فنون زخرفية، وهذا غير صحيح.

إن سير العملية الفنية عبر التاريخ، ابتداء بالتحضير لها بالبدايات الأولى من قبل أن يبدأ التاريخ، وانتهاء بالغاية التى من أجلها ينشأ الفن الكبير، هى الهادى إلى بداية الطريق: طريق الإدراك السوى للفنون: وسائلها وغاياتها.. طريق الصحبة للتعرف على المكنون. أما الطريق نفسه فصعب وطويل. فكلما تجدد الإدراك تجدد المعنى. وكلما تجدد المعنى تجدد السعى ولزم أن يتجدد الإدراك، حتى نصل إلى أفق ما يعجز عنه الإدراك، ونشارف حظائر القدسى المطلق حيث يمتنع الكلام.

وربما كان هناك سببان ضمن ما يفسر اهتمام العالم المعاصر بالفنون الإسلامية ويساعد فى الوقت نفسه على التعرف على هذه الفنون، هما:

(أ) أن الفن ليس من الضرورى أن يكون تصويريا بمعنى تشخيصى.

(ب) أن العصر أصبح ـ لدى الطليعة فيه من جهة ولدى كثير من الناس من جهة أخرى ـ وبه ظمأ إلى عالم الروح والمعنى.

إن الأساس الذى تقوم عليه أصالة أى فن من الفنون، وليس الفن الإسلامى وحده، ولا الفن التشكيلى وحده، بل كل الفنون على الإطلاق، بل كل نهضة فى

تاريخ البشر ـ هو رؤية أصيلة وجديدة للوجود. وهذا على وجه التحديد هو سر الأصالة فى فنون الإسلام وما ظهر فيها من سمات مغايرة لما هو شائع ومعتاد. إن الرؤية الجديدة لمعنى الوجود على الإطلاق، ومعنى الحياة على الإطلاق ومعنى الإنسان على الخصوص، الرؤية الجديدة لهذه الأمور التى أتى بها الإسلام هى جوهر أصالة هذه الفنون.

ولما كانت الرؤية الإسلامية تعتمد فى الأساس على الكشف القلبى لسر الوجود ﴿الذى ليس كمثله شىء﴾، كان التجريد للفنون الإسلامية أساسا.

وكانت القداسة والاستشعار بها أساسا. . وكانت الوحدة الرابطة بين أطراف الأرض التى انتشر عليها الإسلام وأشتات الشعوب التى استضاءت برؤيته. . كما كانت ملامح أخرى تجد تفسيرا لها فى هذا الإدراك القلبى لسر الوجود فى نور الإسلام ومنها وحدة الشهود التى يعمل الفن الإسلامى على تركيبها فى القلب الودود، ويعبر عنها ذلك الاستغراق فيما يسمى «الأرابسك» الذى يرمز إلى تداخل وترابط وتآزر وتدابر وتماثل عناصر الوجود. وإيحاؤه بلا محدودية آسرة.

كما أن عالمية الدعوة للناس كافة، ووحدة البشر فى الرؤية الإسلامية هى إحدى دعائم سمات الموضوعية الأصيلة فى فنون الإسلام التى لا تصدر عن الهوى، ولا عن نزوات الأفراد، ولكنها تصدر عن وجدان مستجمع للحياة، متطلع إلى أفق أعلى يستهديه.

كما كانت دعوة الإسلام للاحتفال بالدنيا والدين فى وقت معا تفسيرا آخر لبعض ملامح هذا الفن الذى انشرح صدره للحياة الدنيا وتطلع إلى الحياة الأسمى، فأضفى على الحياة فى كل مرافقها وأدواتها وجنباتها ذلك الأريج العجيب وأكسبها ذلك الإيحاء المنعش الرحيب.

لقد كانت الرؤية الإسلامية هى الجامعة بين شعوب الأرض التى آمنت بالإسلام ـ العربى منها وغير العربى ـ كانت هذه الشعوب تتنسم عبير الرؤية الإسلامية بما فيها من بساطة أخاذة، سرها التوحيد والتنزيه، وعمق لانهائى، ودعوة غير محدودة بجنس أو طبقة، رؤية تكشف عن آيات الله فى الآفاق والأنفس.

كانت هذه الشعوب المؤمنة والمستبصرة بهذا الإيمان تمنح تلقائيا أعمالها ذلك

الأريج، وتحيل كل ما تجمعه أو تحصله من علوم وفنون فى الحياة إلى ذات العبير الإسلامى الذى ما زال إلى اليوم يجمع بين هذه الشعوب المتباينة الأجناس.

للرؤية الإسلامية شغف بالتفكر فى مخلوقات الله عز وجل، وتدبر القرآن الذى يضرب المثل تلو المثل فى التأمل فى الحياة.. لهذا، كان أثر هذا الولع بتأمل، لا نقول المرئيات، بل كنه المرئيات، هو إحدى السمات التى يتميز بها الفن الإسلامى ـ العربى وغير العربى ـ عن غيره من فنون الأرض قاطبة:

يتوحد فيها مع الفن الإلهى فى الخلق الكونى دون تقيد بهيئة خاصة مرئية لشىء ما.. بل هو توحد مع ذلك النمط الإلهى فى هيئة البناء وعضونته فى إنشاء المنجزات الفنية الإسلامية.

إن منجزات الفن الإسلامى هى ثمرات هذه التأملات فى الكون وليست ثمرة العزوف عن المرئيات كما يقال.

إنها تمثل عالما ثانويا من خلق الإنسان بهدى من ذلك الإيمان الإسلامى المتفرد، والذى لا ينى يدعو إلى:

تدبر المخلوقات فى الأنفس وفى الآفاق..

وإسلام الوجه لله، والعمل بهديه.

والإسلام يدعو إلى أمر غاية فى الأهمية من الناحية الفنية: هذه الدعوة خاصة بالعمل، وإتقان العمل، والتفانى فى التجويد، لأن الله جميل يحب الجمال، وهو بديع السموات والأرض، وهو الخالق البارئ المصور.

أربعة مداخل إلى رؤية الأصالة

هناك مداخل أربعة إلى رؤية هذه الأصالة واضحة وناصعة :

• المدخل الأول:

اعتبار هذه الفنون ذروة تكامل رؤى العالم القديم، منذ العصور الحجرية إلى وقتنا هذا : كيف تكامل السعى من البدايات المبدعة الأولى، وعبر الحضارات القديمة والوسيطة حتى روائع الفن الإسلامى . . وذلك لكى تبدو الأصول والجذور متصلة بالزهور والثمار . . فإن الصناعات الأولى فى العمارة والخزف والمعادن والنسيج والخشب والكتاب كل ذلك كان فيضا متدفقا يتزايد دفعه، يزهر ويثمر، ويذوى منه ما يذوى، ولكن دفع التيار وتجدد روافده لم يتوقفا أبدا حتى أتيح لهما التمام فى نور الإسلام الذى انشرح صدره للتقبل والاحتواء .

إن المعابد القديمة بعمدها ودعائمها وصحونها وأروقتها ومجازاتها لتستشف فصلات منها من خلال المساجد والعمائر الإسلامية دون مطابقة، ولكنْ نمو نحو هدف أسمى . .

وكذلك الحال فى كثير من مفردات الفنون، فقد تطور الوجدان، وسما بهذه الفنون لتوائم الوجدان الجديد . . وإن كانت بعض الفنون فى مشخصاتها المألوفة قد قل تمثيلها فى منجزات هذه الفنون الإسلامية مثل النحت والتصوير، إلا أن القيمة النحتية والقيمة التصويرية فى عناصرهما الأساسية لا تغيبان عن هذه الأعمال، بل هما حقيقة وواقع لا يقلان فى الحقيقة والواقعية عن غيرهما من الفنون، ذلك أن الحياة كلها أصبحت فى هذا الفن صورا ومنحوتات لا تنسى، ولكنها فى هيئة مجردة لا انفصام بينها وبين الحياة اليومية ذاتها .

• المدخل الثانى:

النظر إلى الشخصية التى يدعو إليها الإسلام كواحدة من الشخصات الأربع التى أنجزها السعى البشرى منذ العصور الأولى وهى :

(أ) العالم القديم : حيث قامت أقدم الحضارات وتواصل السعى حتى كان مهبط الديانات السماوية وكان الإسلام .

(ب) والأوروبية : حيث انتقل النور من هذا العالم القديم إلى الغرب الأوروبى عبر اليونان فالرومان ثم العصور الوسطى فالنهضة ثم العصر الحديث .

(جـ) والهندية : فى شبه القارة متعددة الأعراق و اللغات والديانات .

(د) ثم الصينية : وذلك الأفق الأقصى والذى يشكل الشخصية الإنسانية الرابعة .

فى ضوء هذه المقارنة تبدو الشخصيات الثلاث غير الغربية وقد ثبتت كيانها فى أعماق الوجود القدسى واستمسكت بجذورها فى رؤى كونية يشغل فيها الإنسان كونا من الأكوان وليس المركز والغاية .

• المدخل الثالث:

حيث تتفرد الرؤية الإسلامية بالنبوّ عن الصورة والتعلق بما يعلو على التشبيه ، تمسكا بالتوحيد والتنزيه على النقيض من الهندية والصينية حيث يزخر الأفق ببحر متلاطم من الصور .

• المدخل الرابع:

أخيرا التحرر من الرؤية الأوروبية للفنون والجماليات عند النظر إلى فنون العالم القديم وذروتها فى المسيحية والإسلام وفنون الهند والصين ، إذ إن لكل منها جمالياتها الخاصة بها .

ويتبقى من جماليات الفنون الإسلامية ـ مرصودا فى المراجع ـ جماليات الخط العربى : «القلقشندى» . وجماليات الفن بعامة كما جاءت فى «إخوان الصفا» . ولابد أنه كان هناك لكل فن من الفنون جمالياته الخاصة التى ربما أمكن للبحث أن يبين عنها فى المستقبل .

ومما لاشك فيه أن النظر من هذه المداخل الأربعة سيفيد الارتفاع فوق المسائل الجزئية التى قد تحجب عنا الرؤية الشاملة للكل الحى النابض بالروح الأصيل الذى إليه ـ آخر الأمر ـ يعزى هذا الخلق الفنى المتفرد بين فنون الأرض .

هذا ونحن لا نتناول البحث فى أصالة الفنون الإسلامية من زاوية المؤرخ والأثرى لأن هذا ليس اختصاصنا ، ولكننا نتناول هذا الموضوع من زاوية :

الإنسان الذى يبحث مشكل الوجود . .

والفنان الذى يبحث مشكل الخلق الفنى . .

والمسلم الذى يعنيه بالدرجة الأولى روح الإسلام .

* * *

عن الفن الإسلامى

الفن الإسلامى تعبير عن أمل . هذا الأمل هو رسالة الإسلام ، والإسلام هو تحقيق المبدإ الأسمى . قمة القيمة فى حياة الإنسان ، إسلام الوجه لله .

وحدة البشر وتضامنهم فى تحقيق هذا الأمل . .

رؤية الكل كمشير إليه . .

هذه هى الحياة الحقة . . الحياة الواعية فى كل ما نفعل ونصنع بذلك الوجود السارى بالغ الكمال ، الواحد المقدس ، الذى ليس كمثله شىء .

الإسلام هو فن الحياة المتكاملة والحرة بتوجيه الله .

وأن ننظر إلى هذا الفن من زاوية فن آخر خطأ ننصح بتلافيه . فلكل فن نوره الخاص به ، ومنظوره الذى يستوحيه لكى يُرى الرؤى المناسبة له .

وفن له مثل ما لهذا الفن من عمر واتساع أفق وعشرات آلاف العاملين لابد أن تكون له ذاتية خاصة به يكشف عنها للمتوددين إليه ، الراغبين فى توسيع خبرتهم بآفاق حياة الإنسان وممكناته التى لم تستكشف بعد .

والفن الإسلامى تجربة فى الحياة أخذت للآن أكثر من ألف عام وشغلت حيزا كبيرا من الأرض .

أن نقسم الفن إلى فن جميل، وفن تطبيقى، ومجرد وغير مجرد، إلى تصوير ونحت وزخرفة، جائز طالما هو مفيد، ولكنه ليس ضروريا أو مطلقا.

فالفن الإسلامى يجمع بين هذه الأقسام عادة فى عمل واحد وهذه إحدى نواحى شخصيته ومعناه.

هو فن تمازجت فيه مقومات هذه الأقسام فلا انفصام بينها.

واهتمام عصرنا الحاضر بالفن معروف ويكاد يفوق اهتمام كل العصور من حيث مدارس الفنون ومعاهد تاريخها، والمجموعات الفنية، والمتاحف، والمطبوعات من كتب ودوريات ونقد، وغير ذلك من الكتابات التى تحفل بالفن، كل هذه أمور لها قيمتها، ولكن عصرنا هذا عصر بلا أسلوب فنى، الفن فيه طفيلى على الحياة.

أما الفن الإسلامى فكان ممتزجا بها: كان كيفها وطريقها وعدتها.

وما يسمى عمارة حديثة، وأثاث حديث، ومصنوعات حديثة شاهد على غياب الأسلوب أكثر من شهادته على وجوده. هى شواهد على الفقر النفسى للإنسان المعاصر وسط غناه المادى وقوته. ويتضح هذا عندما نقارنه بفنون العصور الكبرى. وشواهد أخرى نجدها فى سلسلة النزعات والحركات التى عادة ما تدور حول أنصاف حقائق غير مهضومة تتعاقب، يتلو بعضها البعض أو يعاصره ليلقى به جانبا عندما يحل دور النزوة الجديدة، وكلها فى مجموعها لا تُكَوِّن أسلوبا للعصر.

والسبب فى غياب الأسلوب هو ظاهرة عدم القدرة على التكامل التى تبدو كما لو كانت طابعا أصيلا للعصر.

ليس لعصرنا رؤية متكاملة لمعنى الحياة رغم العلم ووسائله المذهلة.

والأسلوب هو حكمة حياة مرئية..

بصيرة مكشوفة للبصر..

نظام جديد من القيم يتعشقه الإنسان ويكرس حياته لتحقيقه. وأن نقبل على أسلوب لمجرد المتعة أو التسلية لايتيح لنا محتواه الحقيقى.

الفن الكبير مجاهدة، استكشاف لأعماق الحياة، ليحقق الإنسان إنسانيته وسع طاقته، ويتجرد من آلية الحياة ورتابتها وسطحيتها.

وفى الفنون الكبيرة، مدخر لنا حقائق بصيرية عن الحياة اللائقة بالإنسان، يصعب على النظم الفلسفية التعبير عنها:

هذه البصائر حية فى طرق الحياة وكيفيتها . والأسلوب هو ذلك المنهاج فى الحياة حيث تكتنز بصائر ذات قيمة .

فنون الهند وفنون الصين تكافئ الباحث عن كنوزها بما حققته تلك التجارب الرائعة فى فن الحياة .

وهدف الإسلام الهداية إلى أسلوب الحياة الجديرة بالوجود البشرى . وأمل الفن الإسلامى أن يحقق عمليا هذا الأسلوب، بل هو رمز لهذا الأمل . . هو حصاد تاريخ كما أنه وحى للمستقبل .

ومن السهل أن نسىء فهم ظاهرة الدين ولذلك طرق متعددة . وينجح الفن الدينى عندما يتمكن ـ محدودا بوسائله الخاصة ـ من أن يعبر عن جوهر الدين الذى هو أمر تجربة قابلة للتحقيق . وهذا ما حاوله الفن الإسلامى .

وجوهر الدين الإسلامى هو الوعى بذلك المبدإ الأسمى، اللامحدود كما يصفه القرآن وتشير إليه الأسماء الحسنى . هذا اللامحدود هو مركز الجذب لدقائق الفن الإسلامى وكلياته والوعى به هو وظيفته الأولى، كل منجزاته تتعطش إليه . . وتدل عليه عندما يصيبها التوفيق والنجاح .

وأن يتوحد الإنسان فى داخل نفسه وفى الخارج طوع هذا المبدأ الأسمى : أن يوائم بين الظاهر المرئى والمستور الخفى، بين الأنيس والقدوس . . البطولى والصوفى . . المصنوع والطبيعى هذا كله ومثله هو ما هدف إليه الفن الإسلامى فى سعيه الحثيث نحو تحقيق أمل الإسلام فيه .

ولكى نرى هذا، لا يليق أن نجزئ ونشرّح العمل الواحد، ولا أن نرفع الجزء من مكانه من الكل . فالفن الإسلامى يكون أكمل كلما جمعناه فى عضونته، بينما تنكمش قيمته وتتضاءل معانيه كلما جزأناه .

فارق كبير بين المتحف حيث الأعمال مجمعة ككلمات من كتب، وأسطر من قصائد، وبين الأعمال نفسها كما هى قائمة فى الحياة : فى المبنى والحى والمدينة، بل فى سياق التاريخ الطويل، إذا أتاح لنا الدرس والصبر والخيال أن نحوز هذه الرؤية العجيبة لتجربة من أهم التجارب التى أجرتها شعوب عديدة ذات عراقة فى التاريخ على سطح هذا الكوكب الصغير .

أهمية الفن الإسلامى

لم يحدث أن تَرَابَطَ العالم كما هو مترابط اليوم. ولكن.. لأى غرض يحدث هذا الترابط؟

عندما يحين الحين وينقضى صلف الإنسان..

وتدرك وحدة البشر..

فإن رسالات الديانات الكبرى التى رأت وأعلنت هذه الحقيقة ستصبح حاجة ملحة.

و عندئذ، فإن الفنون التى نجحت فى التعبير عن هذه الرسالات ستدرس على وجهها الصحيح.

ولكن الإنسان اليوم يعانى من تعصب تجاه الدين. وظاهرة التدين فى حاجة إلى تصفية وتنقية وتمحيص.

وفى مقدور الفن الإسلامى بما فيه من وحدة وتنويع أن يشرح كيف تُكوَّن ثقافة عالمية دون أن تمحى فيها فردانية الزمان والمكان.

وسيصبح ـ كظاهرة ثقافية ـ مثالا للكيفية التى يمكن بها الجمع بين الأخذ والعطاء لصالح الجميع.

إن أهم إنجاز نجنى ثماره عندما يتاح الإدراك الصحيح للفن الإسلامى، هو أهمية وحدة البشر وأهمية التكامل للنفس الإنسانية، وما يتلو ذلك من فضل.

وهذا يمكن تحقيقه عندما نرى:

١ ـ السلام والاستقرار والوئام فى أعماق النفس الذى نجح الفن الإسلامى فى الإيحاء به.

٢ ـ البهجة فى العمل الجماعى، الأمر الذى تجلى فى حب الإنشاء وحب الوصول بالعمل معا إلى الكمال.

٣ ـ القدرة على التنويع مع الحفاظ على وحدة الصف والحرية فى القبول دون تبعية ذليلة أو شذوذ.

٤ ـ التحقق من أن الحق واحد وقدوس من خلال عملية العمل الجماعى، الأمر الذى يجعل هذه الرؤية للحق ممارسة بالفعل.

٥ ـ القدرة على تحويل الحقيقة إلى حلم، والحلم إلى حقيقة.

٦ ـ نعمة إدراك السعادة عن طريق العمل.

٧ ـ وأن تثرى ما تصنع بالعمل غير المبتور.

٨ ـ أن تنال الخلاص على يد الرائع الذى تسهم بيدك فى إبداعه.

٩ ـ أن تجعل من الحياة فنا وأن تجعل من الفن حياة مهما كان المصنوع.

١٠ ـ أن تجلو فى الفراغ حضرة القدوس الذى تراه بصيرة الخواص ويتيح الفن رؤيته لكافة الناس.

هذا من جدوى الفن الإسلامى.

ولكن ما أهمية هذا الفن للعصور القادمة؟

إذا كان ما ذهبنا إليه صحيحا، وأن هناك سمتا سويا لحياة الإنسان، لا يتيسر له دون أن يرى الحق.. وأن الفن الإسلامى يساعد على القرب من هذه الرؤية، فإن الأمل أن يتاح للعصور الأخرى أن تستكشف الحق من جديد، وتتجدد لها الحياة. وترى هذه البصيرة ـ بالحق ـ أن قوام العالم هو «الأسمى»، وأنه بغير هذا القوام تتهاوى الحياة أشتاتا وينحل الإنسان.. وأنه عندما يتحطم سلم القيم، تتناثر الحياة الإنسانية، وتصبح الفوضى هى النتيجة المنطقية.

وبغير التحقق من هذا المبدأ الأسمى الذى يساوى بين الناس فوق الفوارق، فإن الإنسان يكون عدوا للإنسان وينقسم على نفسه.

وإذا غاضت هذه الرؤية تفقد الدنيا قيمتها وتصبح الطبيعة لنا بلا معنى بقدر ما نبتعد عن هذه الرؤية.

وما لم نحقق فى ذواتنا هذه الرؤية، وننسق حياتنا تبعا لها، فلن نعرف السلام.

وكان من عظمة الإسلام أنه فتح صدره لمختلف الحضارات من حوله، شأنه فى ذلك شأن كل موقف خلاق متفتح، كما أنه عندما أعطى عطاءه كان نسيجا وحده كما ينبغى لكل عطاء أن يكون.

فإذا نجحنا فى توسيع خبرتنا بكل من الفن والحياة نتيجة لاستيعابنا مختلف الثقافات الفنية التى يحفل بها التاريخ، فإننا سنكون أكثر معرفة بأغوار النفس وأغوار الحياة.

ونتيجة لهذا سنتفوق على إقليمية العصر، ونكون أكثر قدرة على تقييم وتقويم ثقافة الإنسان المعاصر.

وسنسأل أنفسنا: ألا يمكن أن يوجد علم آخر بمفهوم مختلف عن العلم المعترف به اليوم دون ما تعارض بين العلمين ولكن يمايز بينهما اختلاف الطريقة واختلاف حقل التجربة! علم جديد تتحقق به النفس من ممكناتها حتى التمام، مستفيدا من محاولات العصور فى أنحاء العالم، ومستندا إلى المنجزات الفنية للثقافات العظمى كوثائق نفسية.

سنتبين أن العالم يدعونا إلى قراءة جديدة له، أمل أن يتحقق أكثر وأكثر من المعنى والقيمة وستكون الفنون التى حفلت بجوهر الحياة هى مفاتيح الرؤية. وينبعث تذوق اللامحدود الموجود فى ذواتنا طوال الوقت كوعى جديد مشترك.

وسيحيا العالم الميت الذى يحيط بنا، ويتواصل مع منابع المعنى التى لاحد لها، وسندرك وقتذاك المغزى الحقيقى للعمل الرشيد باعتباره الطريق إلى تحقيق السلام.

* * *

سر أصالة الفنون الإسلامية

إلى الآن بدأنا بشرح المعوقات دون رؤية أصالة الفنون الإسلامية ناصعة.

وبعد ذلك حاولنا شرح ماهية الفن الإسلامى وأشفعنا ذلك ببيان أهميته للناس اليوم وللمستقبل إذا أردنا لحياتنا ألا تكون طافية على السطح تسيرها الأهواء حيث تشاء، بل أردنا أن تكون لنا حياة ثابتة الجذور فى أعماق الوجود.